﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [النحل: 22 - 23]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبْلَهُما:

التَّوطئة بالتَّخلية قبل التّحلية

لمّا استدلّ في الآيات السّابقة على بطلان الشّرك وعدم استحقاق أحدٍ للعبوديّة سواه، وقرّر عجز آلهتهم عن الإيجاد بالخلْق والإعادة بالبعث، أتْبَعَ ذلك التّفصيل بتقريرٍ مُجْمَلٍ ونتيجة عامّة تُلخِّص إلى إثبات الوحدانيّة الإلهيّة ونفي التّعدّد وما ينبني على مخالفة ذلك وجحوده، فكانت الآيات السّابقة كالتّوطئة لما قرَّرته هاتان الآيتان.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّنكِرَةٌ﴾: اسم فاعل من الإنكار، وهو ضدّ العرفان والإقرار، وأصل (نكر) خلاف المعرفةِ التي يَسْكُن إليها القلب، لورود شيءٍ عليه لا يتصوّره، فهو ضربٌ من الجهل، والمراد هنا: أنّ قلوبهم تنكر الأمر الواقع وتجحده، وهو الوحدانيّة[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الاستكبار يُعمي القلبَ فيُنْكِر الحقّ والعِلم

بعد إقرار الأدلّة التّفصيليّة في شأنِ المعبودات، شرعتِ الآيةُ في بيانِ أنَّ الإله المستحِقّ للعبادة، هو اللّه الواحد الأحد الفرد الصمد، وحالُ الذين لا يؤمنون بالآخرة الإنكار والجحود لِوَحْدانيَّتِهِ سبحانه؛ لعدم خوفهم من عقابه، فهم مُتَكَبِّرونَ عن قَبول الحَقِّ، واللّه يعلم ما يخفونه مِن عقائد باطلة وأقوال زائفة وأفعال منكرة، وما يظهرون، وسيجازيهم على ذلك، إنّه ﷻ لا يحبّ المستكبرين عن عبادته والانقياد له.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (نكر)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 128.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة فصلِ الجملة:

تقريرُ النَّتائجِ بـرويَّـة يـأتي بعد المقدِّمات الضَّروريَّة

جملة ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ استئنافيّةٌ ممّا قبلها؛ لتقرير النتيجةِ بعد المُقدِّمات الاستدلاليّة السّابقة في حِجاجِ المشركين، فأتى بالغرض المقصود من الاستدلال، وهو تقرير أنّ الألوهيّة مُستَحَقّةٌ لإلهٍ واحدٍ لا شريك له، لا يُنازِعه فيها أحد، وهذا ثابتٌ بالبرهانِ القطعيّ المتقدِّم الذي لا يُنازِع في بداهتِه وأحقّيَّتِه أحدٌ سليم العقل[1].

فائدةُ إضافة لفظ (إله) إلى ضمير المخاطبين:

الله إله العبادِ قـهـرًا واخـتـيـارًا تكليفًا وتشريفًا

أُضيف لفظ (إله) إلى ضمير المُخاطَبينَ في قولِه تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾؛ للدّلالة على أنّهم مكلّفون ومسؤولون ومجزيّون على اعتقادِ الوحدانيّة، أقاموا به واعتنقوه أم خالفوه وجحدوه؟! فهم مناطُ هذا التّقرير تكليفًا وإلزامًا، ونكتةُ مجيء الضّمير بصيغة الخطاب دون غيره، فلم يَقُلْ: (إلههم إلهٌ واحد)؛ لأنّ الأصل في التّكليف أن يكون خطابًا، فيقع بصيغته، للدلالة على معنى الاستحضار والمواجهة والتّعيين لذات المُخاطَب، وأنّه هو المعنيّ المُراد، فيدخل فيه كلّ سامعٍ وكلّ تالٍ وكلّ مُبلَّغٍ بتلك الآية على وجه التّعيين لذاته بضمير الخطاب في كلّ وقت؛ ليستشعر كلّ أحدٍ أنّ الخطاب في الآية متّجهٌ له بخصوصه، فالخطاب جاء على أصله.

كما أنَّ في الإضافة فوائد منها: اختصاص الله بالمُخاطَبينَ قهرًا وعلوًّا وقدرةً ومُلْكًا وخَلْقًا، وتشريف المُخاطَبينَ وإعزازٌ لشأنهم لو أذعنوا له، وتقرير الحقيقة بقطعِ النَّظر عن اعترافهم بذلك من عدمه، فهو إلههم رضَوا بذلك أم لم يَرضَوا[2].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 133، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 106، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 128.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 362.

سرُّ التَّعبير بالإله دون ذكر لفظ الجلالة (الله):

التنصيصُ على ما ينكرونه من استحقاقه تعالى بالألوهية

آثَرَ النَّظم اختيارَ لفظ (إله) دون الإتيان بلفظِ الجلالةِ (اللّه)، فلم يقل: (اللّه إلهكم)؛ وذلك؛ لأنَّ الغرضَ، هو النّص على وصف الألوهيّة الصّريح بلفظ (إله)؛ لإجراء وصف الوَحْدانيَّةِ عليه ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، فهُم يَعْلَمونَ (اللّهَ) ولا ينكرونه، فإنكارهم متعلّقٌ باستحقاقه الألوهيّة عليهم واستحقاقه الألوهيّة من غير شريك، فأتى بما له دخلٌ بمحلّ النّزاع دون ما لا دخْل له فيه، واقتصر على محلّ إنكارهم دون ما وضح لهم ولا يلتبِس عليهم؛ إيجازًا وتقصيرًا في الكلام، إذِ الحُجَج تُصاغ صياغة القوانين المُحْكَمَةِ الخالية من تكرار الواضحات، ولم يَقُلْ: (إلهكم اللّه واحد)؛ لاحتمال أنْ يكون مفهومه: أنّ الإله المُسمَّى بالاسم الجليل (اللّه) هو واحد، وأنّ هناك إله آخر يُسمّى بغير ذلك، فلمّا قال: (إلهكم إلهٌ واحد) أثبت وصف الأُلوهيَّةِ لمُسمًّى واحد فقط.

بلاغةُ إقامةِ الموصوف خبرًا دون صفته:

نفيُ التعددية والاحتمال الباطل

آثَرَ النَّظم الإخبار بالموصوفِ ﴿إِلَٰهُكُمْ﴾ دون إجراء الصّفة ﴿وَٰحِدٌ﴾ مُجرى الموصوف؛ فيكون هو الخبر، أي: لم يَقُلْ: (إلهكم واحد) مع تحقّق مضمون الخبر في المبتدأ؛ وذلك لفائدتين وهما:

أولًا: تمام نفي التّعدديّة، والنصّ على الوحدانيّة، فلو قال: إلهكم واحد، فربّما توهّم متوهّمٌ أنّه واحدٌ في نوع الألوهيّة دون عدد أفراده، كما تقول: عندي نوعٌ من كلّ طَيْر؛ غُرابٌ واحد، وصقرٌ واحد، وعصفورٌ واحد، وهو يقصد وحدة النّوع لا وحدة العدد، فكذلك هنا: قال: إلهكم إلهٌ واحد، أي: معبودٌ واحدٌ لا يتعدّد، فهو واحدٌ في ذاته، وواحدٌ في صفاته، وواحدٌ في أفعاله.

ثانيًا: نفي احتمالٍ باطلٍ، فلو قال: (إلهكم واحد)؛ لاحتملَ إقرارَهم على أن يتّخِذَ كلُّ عابدٍ إلهًا واحدًا، فلا يعبد سواه، ولو

كان غيرَ الإله الذي يعبدُه غيرُه، فيفيد إجازة توزيع الآلهةِ واحدًا منها لكلّ فريق، لا سيّما وأنّ بعض المُخاطَبينَ في ﴿إِلَٰهُكُمْ﴾ قومٌ مشركون، وكان لكلّ قبيلةٍ منهم صنَمٌ يعبدونه، ويجتمعون عليه، بخلاف ما عند القبيلة الأخرى، فكان كلّ صنَمٍ باعتبار كلّ قبيلةٍ، هو إلهُها الأوحد، فلمّا قال: إلهكم إلهٌ واحد، كان كأنّه قال: إلهكم المستحقّ للعبادة وبتسميةِ الألوهيّة، هو إلهٌ في ذاته حقيقةً، وهو واحدٌ لا يتعدّد[1].

نوعُ الفاء ودلالتها:

التّفريعيَّةُ والفصيحة تلتقيان في بناء الجملة اللّاحقة على السّابقة

الفاء في قولِه تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ إمّا أن تكون تفريعيَّةً؛ لبيانِ موقفِ المشركين من قضية الإيمان المقرّرة في قوله: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، وفيها معنى السّببيّة، أي: تسبّبَ عن تقرير عقيدة الوَحْدانيَّةِ بالدَّلائل القطعيّة أنّهم أصرّوا على الكفر والعناد، فعدم إيمانهم في موقع النّتيجة لجملة ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

وإمّا أن تكون فصيحة، حيث أفصحتْ عن محذوفٍ تقديرُه: (فإذا كان ذلك كذلك فالّذين لا يؤمنون بالآخرة كذا وكذا)[2]، والتَّفريعيَّة والفصيحةُ تلتقيانِ في معنًى واحد، وهو بيان التَّرابط بين الجملتين، وأنَّ السّابقة مهادٌ للاحقة.

بلاغةُ الإطناب:

أصلُ كلِّ كُفْرٍ الغفلةُ عن أصل الإيمان والاستهانة بالآخرة

آثرَ النَّظم الإطناب على الإيجاز، فجاء التّعبير بالاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ بدلًا من (الكافرون)؛ وذلك للآتي:

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 106، والبقاعي، نظم الدرر: 11/ 133، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 362.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 106، والبقاعي، نظم الدرر: 11/ 133، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 362، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 251، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 128، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4155.

أوّلًا: تعيينهم وتمييزهم أكمل تمييز؛ لأنّ المشركين قد عُرِفوا وتميّزوا بمضمون ما في حيّز الصّلة، وهو عدم الإيمان بالآخرة.

ثانيًا: الإخبار عنهم بالموصول تقبيحٌ لهم واستهجانٌ لذواتهم وأفعالهم.

ثالثًا: الإشعار بعلّيّة استمرارهم على الكفر وإصرارهم على العناد؛ فكأنّه قيل: أعْرَضوا عن الإله الواحد الّذي لا شريك له؛ لأنّهمُ الّذين لا يؤمنون بالآخرة[1] "فإنّ الكفر بالآخرة وبما فيها من البعث والجزاء على الطّاعة بالثّواب وعلى المعصية بالعقاب يؤدّي إلى قِصَرِ النّظر على العاجل، وعدمِ الالتفات إلى الدلائل والاستكبار عن اتّباع الرسول"[2].

دلالةُ التّعبير بالنّفي دون الإثبات:

نـفـيُ الإيـمـان أوسعُ من إثباتِ الكفرِ وأرسخُ في الإنكارِ

آثرَ النّظم الكريم الإتيان بأسلوب النّفي في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ دون أن يقول: (فالّذين يكفرون بالآخرة) بالإثبات؛ للدّلالة على أنّ الإيمانَ لم يكن من طِباعِهم، فهم لم يَتَأتّ منهم إيمان، ولا يصدر عنهم ما يقتضي النّظر والتأمّل فيما يستدعي الإيمانَ من الدّلائل، فنفي الإيمان يفيد تمام الإعراض، ويُعرِّض بهم بأنّهم ليسوا من الإيمان في شيءٍ، لا بالنّظر في الأدلّة ومراجعتها، ولا بالاعتقاد والتّسليم، إذن فهم ليسوا أهلًا له أصلًا، ولو قال: (يكفرون) بالإثبات لأشْعَرَ بأنّهم نظروا في الدلائل وعقَلوها؛ لأنّ الكافر يسترُ ما قد أبصره أوّلًا، ثمّ يغطّيه بالجحود والإنكار، فلمّا قال: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ عرّفنا أنّهم لم يَكترِثوا أصلًا بالدّلائل والبراهين، ولم تكن محلّ نظرٍ وعنايةٍ لهم قبل كفرهم[3].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 363.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 106، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 363، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 128.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 134.

دلالة استعمال زمن الحال والاستقبال:

الكفرُ يزدادُ بالإصرارِ على أعمالِه والاستمرار في خِصالِه

آثرَ النَّظم الإتيان بما يُفيد نفيَ الإيمان في الحال والاستقبال، فقال: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ ولم يَقُلْ: (فالذين لم يؤمنوا بالآخرة)، للإشارة إلى أمرين: **الأوّل**: أنّ الدّلائل والبراهين المُستلزِمة للإيمان ما تزال قائمةً تواجههم في كلّ وقتٍ ما بقيَتْ لهم حياة.

الثاني: أنّه مع استمرار حصول تلك الدّلائل يستمرّ إعراضهم وعنادهم، فهُم يزدادون كفرًا يومًا بعد يوم؛ لتجدّد الكفر منهم وإصرارهم عليه.

معنى الباء ودلالتها:

الإيمانُ حياةُ القلوب وأُنس النُّفوس

الباء في قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ للتَّعْدِيَةِ، وقد دلَّت على أنّ الإيمان، هو بمعنى الاعتقاد والتّصديق بالشّيء الّذي يتبعه إن تحقَّق قولٌ وعمل، أو الباء للإلصاق المجازيّ؛ لأنّ المؤمِن يلتصقُ قلبُه بما يعتقده ويؤمن به بحيث لا يفارقه طرفة عيْن.

سرُّ إيثار لفظ ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ دون مرادفاته:

التمسّك بالآخِر المُزيل أحقّ من التمسّك بالأوّل المنصرم المُزال

لفظ الآخرة في قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ باقٍ على الوصفيّة، فهو اسم جنسٍ مقرونٍ بأل المُعرِّفة، وإنْ جُعل علمًا على الأوقات أو على المرحلة الباقية بعد فناء الدّنيا، فأل فيه لِلَمح الأصل، ولذا ففي التّعبير به إغناءٌ عن التّعبير باليوم الآخر، لعدم التباس أنّ المقصود بالآخرة، هو ذلك اليوم المعهود، ولم يعبّر بمرادفات ذلك اليوم كالقيامة وغيرها؛ لإظهار معنى ضِدّها، وهو (الأولى)؛ للإشعار بالمنتهى والعاقبة، وأنّ لهم آخِريّةً يؤولون إليها بعد نفاد الحياة الأوّليّة وهي الدُّنيا، وفي إيثار لفظ الآخرة دون غيره، إشهادٌ عليهم بإعراضهم عمّا يقتضي الإيمان به وإقبالهم على ما يقتضي عدم الاستمساك به؛ لأنّ الشّيء إذا كان آخِرًا كان هو الباقي بعد ما تقدّم عليه، فالنّظر إليه أوْلى والاكتراث به أجدر لضمانته، وإذا كان

الشّيء أوّلًا، ثمّ يَعقُبُه ما يزيله، كما تزيل الآخرة الدُّنيا، كان التّمسّك بالآخِر المُزيل أحقّ من التمسّك بالأوّل المنصِرم المُزال.

دلالةُ حذفِ متعلّق اسم الفاعل:

معرفةُ المحذوفِ مع طلبِ عمومِه من أعمِّ أغراض حذف المتعلّقات

حُذِفَ مُتَعَلَّقُ اسمِ الفاعل في قوله تعالى: ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾، فلم يُعيِّن ما تُنكره؟! لدلالة المقام عليه، أي: مُنكِرةٌ وحدانيّةَ اللّهِ العظيم في ألوهيّته وجلالِه، أو لتعميم مناطاتِ إنكارهم، فقلوبهم مُنْكِرةٌ لجميع ما يوصِلُ لغاية الإيمان التَّسْليم لله، فحذف المتعلّق للإيجاز والتَّعْميم.

كما حُذِفَ متعلّق اسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾؛ لتوسيع حال استكبارهم ومَجالِه، فهم مستكبرون على كلّ ما يُقرِّبهم من الحقّ، ومستكبرون بالباطل ظنًّا منهم أنّه لا عِزّة لهم إلا بالتشبّث به.

بلاغةُ المقابلة في تخصيص الإنكار بالقلوبِ وتعميم الاستكبار:

عِـلّـة الـكـفـر ترجع إلى فساد الوجدان لا إلى خلَلٍ في البرهان

خصّص النَّظمُ إنكارَ القلوب بالذِّكرِ في قوله تعالى: ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾؛ لكون القلب هو آلة القبول والإنكار، فهو مستودع الإيمان والكفر، وفيه إشارة إلى أنّ عِلّة كفرهم راجعةٌ إلى فساد قلوبهم لا إلى خلَلٍ في الاستدلال والبرهان، فجحودهم بسبب أنفسهم لا بسببٍ خارجٍ عنهم.

وفي المقابل قد عمَّم النَّظم الاستكبارَ فيهم في قوله تعالى: ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ دون أن يخصِّصه بالأفئدة أو الصدور أو النُّفوس كما خصَّص الإنكار بالقلوب، فلم يَقُلْ: (وأفئدتهم أو صدروهم أو نفوسهم مستكبرة)؛ للدِّلالة على تمكُّنِ الاستكبارِ فيهم، فهم مستكبرون استكبارًا أصيلًا.

إذا فسد المجتمع كـلَّـه لَـحِـقـتـه اللَّعنة وأحاطت به النَّقمة

نكتةُ الإسناد إلى الجميعِ لا الأكثر:

أسند النَّظم الإنكار إلى قلوب المُتَحَدَّث عنهم وكذلك الاستكبار إلى جميع المتحدَّث عنهم في قوله تعالى: ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم

﴿مُّسْتَكْبِرُونَ﴾، دون أن يأتي بكلمة (أكثر) كما هي طريقة القرآنِ في كثيرٍ من الآيات، فلم يَقُلْ: (وأكثرهم مستكبرون)؛ وذلك لبيان انتشار الإنكار والاستكبار وفُشوّهما في جميع المنكرين، فالإنكار والاستكبار عن الحقّ آفةٌ ليس فيهم أحدٌ إلا وهو متّصفٌ بهما.

نوع الواو ودلالتها:

الاستكبار بريد الإنكار

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ إمّا أن تكون عاطفة، عطفت الجملةَ على جملة ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾؛ وذلك للإشارة إلى أنّ حالَهم من الاستكبار هو عِلّة حالهم من الإنكار؛ فالإنكار والاستكبار متلازمان، أي: صِفتُهم الاستكبار عن كلّ ما لا يوافق أهواءهم، ولذلك تنكِرُ قلوبُهم.

وإمّا أن تكون الواو حاليّة، أي: قلوبُهم منكرةٌ في حال كونهم مستكبرين، فالإنكار لا يكون إلّا في حال الاستكبار[1].

فائدةُ تقديم المسند إليه على المسند المشتقّ:

تخصيص القلوب الذوات بالوصف

قدَّم النَّظم المسندَ إليه على المسند في قوله تعالى: ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾، فلم يَقُلْ: (منكِرةٌ قلوبهم، ومستكبرون)، فقدّم المسند إليه على المسند المشتقّ (اسم الفاعل في لفظي: مُنكِرةٌ، ومستكبرون)، تقديمًا للموصوفِ على الصِّفة، وتخصيصًا لقلوبهم وذواتهم المعبّر عنها بالضّمير المنفصل، فقلوبهم مختصّةٌ بالإنكار، وأعيانهم مختصّةٌ بالاستكبار، فذلك ظاهرٌ غيرُ خاف، وللدّلالة على أنّ اتّصافهم بالتكبّر غير عارضٍ؛ بل ذاتيٌّ طبْعيّ كأنّه غريزةٌ معتادة.

فائدةُ التَّعبير بالاسميَّة:

الإنكار والاستكبار علامتا أهل النّار

عبَّر النَّظم الكريم بالجملتين الاسميّتين في قوله تعالى: ﴿قُلُوبُهُم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 134، والخطيب، التفصيل في الإعراب: 7/ 141.

مُّنكِرَةٌ﴾، وقوله: ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾، دون أن يأتي بهما فعليَّتين؛ للدِّلالة على استحكام الإنكار فيهم، وتمكّن الاستكبار منهم، فهم معتادون الإنكار والاستكبار مستمرّون ثابتون، لا يُرجَى منهم خير ولا أوْب، إذْ صار اتّصافهم بهاتين الصّفتين كالسّجيّة والطّبْع المتأصِّل فيهم[1].

بلاغةُ الاستئناف:

التهديدُ والوعيد على إنكارِهم واستكبارهم

سيقت جملة ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ مساق التّهديد والوعيد على مضمون قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾، فهي من باب إتباع العمل بالجزاء عليه، وذلك في حَملِ الجملة على الاستئناف.

كما يصحّ أن تُحْمَلَ الجملة على الاستئناف البيانيِّ، كأنّه لمّا قال: ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾، سأل سائلٌ عن فِعلِ اللّهِ بهم: (فماذا يصنع اللّهُ معهم؟)، فأُجيبَ: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: يعلم دقيق أحوالهم؛ ليجازيهم عليها.

براعةُ تركيبِ ﴿لَا جَرَمَ﴾ في سياقِه:

اجتماعُ معاني القطعِ بالحقِّ وثبوته

اسْتُعْمِلَ تركيب ﴿لَا جَرَمَ﴾؛ لتقرير معنى الثبوت واللزوم، وأنّ ذلك أمرٌ مقطوعٌ به محسومٌ لا مريةَ فيه، حتّى لا يتشكّك أحدٌ في إحاطة اللّه بالمجرمين، ذلك أنّ (لا جَرَمَ) معناه لا انفصال ولا فكاك، فهو أسلوبٌ عربيّ، ينفي المفارقةَ والانقطاع، فأصل (جرمَ): القطع، فإذا قيل: (لا جرمَ)، فهو نفيُ القطع والانقطاع وإثبات الشّيء بتمامه وكلّيَّته، ولذا فسّر تركيب ﴿لَا جَرَمَ﴾ بـ (لا محالة ولا بدّ ولا مفرّ) وغيرها من التّفسيرات التي تفيد الثّبوت واللّزوم، ومن قال: إنّ معنى ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقًّا، فتفسير الشّيء المنفيّ بنظير

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 128.

معناه الموجب، فإنّ نفي الانقطاع والمفارقة عن الشّيء يقتضي وقوعه حقًّا ثابتًا، فقولنا: (لامحالةَ من وقوع كذا) يساوي: (ثبوتَ وقوعِه وتحقيقِه)، وهذا معنى (حقًّا)، أي: حقّ أو ثبت حقًّا على أنّ ﴿لَا جَرَمَ﴾ حينئذ مفعولٌ مطلقٌ لفعلٍ محذوف، والمصدر المؤوّل من جملة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ فاعلٌ للمصدر المفهوم من معنى ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: (حقًّا)، وعلى معنى (لا محالة) فـ﴿لَا﴾ نافية للجنس، و﴿جَرَمَ﴾ اسمها، والمصدر المؤوّل ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ خبرها، أي: لا محالةَ كونُ اللّهِ عالِمًا بسرّهم وعلانيتهم[1]، وعلى جميعِ هذه التّفسيرات لهذا التّركيب، فإنّها متقررة في الآيةِ على أتمِّ وجهٍ، وهي مرادةٌ بجميع دقائقها اللّغويّة، فإنّ القطع حاصل، كما أنّ الحقّ واقع، مع ما فيها من التّخلية قبل التّحلية بأداة النّفي، وهذا من بديع الاستعمال، ورقيق الاستدلال.

غرضُ الكنايةِ:

عِلْمُ اللهِ بدقائق الأحوال يستلزم المُجازاة عليها

جملة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ كنايةٌ عن الوعيد بالمؤاخذة والمُجازاة بما يُسرّون وما يُعْلِنونَ من الإنكار والاستكبار وغيرهما مجازاة عقابٍ وانتقام[2].

بلاغةُ الفصل بالتّعليل:

نفي المحبّة مؤذنٌ بالانتقام

جملة ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ﴾ تفريعٌ تعليليّ لجملة ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾ الّتي هي كناية عن المجازاة بالوعيد والانتقام، فأخبر بعدها بسببِ تلك المجازاة، وهو عدم محبّته للمستكبرين؛ لأنّ الّذي لا يحبّ أحدًا يفعل السّوء يُجازيه عليه ويُعاقبه لا سيّما مع تمام وكمال قدرته على ذلك، ولكونها في موقع التّذييل التّعليليّ فُصِلتْ[3].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (جرم)، والخطيب، التفصيل في الإعراب: 6/ 38.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 129.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 129.

غرضُ التَّوكيدِ:

العنايةُ بتقرير مضمون الجملةِ

الافتتاح بأداةِ (إنّ) المؤكِّدة في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾، لِمَحْضِ الاهتمامِ والعنايةِ بتقريرِ مضمونِ الجملة، وكأنَّ الغرض بالافتتاح المؤكِّد إجراء التّركيب مجرى القانون المحدّد والمَثَل السّائر المحكَم، وقرينة خلوّ المُخاطَبينَ عن التَّرَدُّدِ في هذا الخبر، تجعله مسوقًا؛ لأجل تأكيد انتفاعهم به، لا لإثبات أصله، فيكون خبرًا بمعنى الإنشاء، أي: أكِّدوا انتفاعكم بمقتضى ذلك بدوامكم على التواضع للّهِ وأحكامه وعدم التّجاوز بالرّدّ والعناد، أو لأجل أن يَسوقوه إلى غيرهم بهذا المساق المؤكَّد للتّرهيب والتّرغيب، فإنّ المؤمن مُبَلِّغٌ عن ربّه[1].

نكتةُ التَّعبير بالنَّفي لا الإثبات:

التَّنبيه على حبِّ المتواضعين بنفيه عن المستكبرين

آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بنفي الحبِّ لا بإثباتِ الكراهية للمستكبرين في قولِه تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾؛ لثبوت مدخول حرف النّفي، مع ثبوت لازمه، وهو الكره، ولو أثبت الضد فقال: (إنَّه يكره المستكبرين)، لما لزم عنه ثبوتُ الضدّ الموجَب، وهو الحبّ، فالنّفي يثبِت موجَبَ الفعلِ، ويثبِت ضدّه؛ فالتَّعبير بعدم محبته للمستكبرين، جرى على طريقة إثبات الشّيء بإبطال ضدّه، قصدًا للتّنبيه على الأمرين معًا، وإيجازًا في الكلام، أي: إذا كان لا يحبّ المستكبرين، فهو يحبّ أضدادهم من المُستسلمين المُنقادين له سبحانه، ونفي الشّيء إثباتٌ لضدّه[2].

معنى التَّعريف الجمعي:

نفي الحبِّ عن كلِّ مستكبر

التّعريف في لفظ ﴿ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ للاستغراق؛ أي: لا يحبّ كلّ مستكبِر؛ لأنّ التّركيب ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ تذييلٌ جرى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/ 172.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/ 172.

مجرى الحكم العامّ والقانون الشّامل، ويدخلُ فيه المُخاطَبونَ من المشركين المُخبَرِ عنهم في هذا السّياق دخولًا أوّليًّا، فيكون الوعيد ثابتًا لهم بإثبات دليله، وهو أنّ لا يحبّ المستكبرين عموما؛ فيُستدلّ بذلك على أنّه لا يحبّ تلك الفئة المستكبِرة من المُخاطَبينَ، كذلك لاندراجهم تحت هذا الدّليل العامّ المُقَرَّر[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإعلان والجهر:

الجهر يختصُّ بالصَّوتِ، والإعلان يعمُّ الصَّوتَ وغيرَه

الإعلان: هو مُطلَقُ إظهار الشَّيء سواء بإبرازه وكشْفِه، أو بالإشارةِ إليه ليُلْمَح، أو بالدّلالةِ عليه بالصّوتِ والحاسّة، ويُغلُب استعمالُه في المعاني دون الأعيان، فالمعنى إذا ظهر للنّفسِ، واستظهرتُه، فقد عَلَن.

وأمّا الجهر فهو إظهارُ الشّيء بإفراطِ حاسّة السّمع أو البصر، ومعنى إفراط الحاسّة: انفعالها بإفراطٍ للمحسوس، صوتًا كان أو صورة، وأكثر ما يستعمل في الصّوت، وقد ورد كلاهما في القرآن، فأما الجهرُ للسّمع ففي قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ [الحجرات: 2]، وأمّا الجهر للبصر ففي قوله: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: 153] أي: عَيانًا؛ رؤيةً مُفرطَةً بالبصر[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 129.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (جهر، علن).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والعشرون،
سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والعشرون، سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 26 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-23-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 26 : المجلد السادس والعشرون، سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-23-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9758876 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»